

المتجلى^٤

بقلم: حازم وفيقي

قالت لي: «أنت لا تؤمن بي مثلما تؤمن به، بينما أؤمن أنا بك فقط ولا أحد سواك».

كنا نسيح في بحيرة فضية وحدنا، وثالثنا القمر يسمع تحاورنا في صمت، ويلقي بضوئه الساحر على وجهها، فينير أكثر، ويزيدها فتنة... نظرت إليه طامحًا أن يجيب عني: ها هي الآن تتحدث عن إلهي وإلهك! ولكنه سكّ تاركًا لي تحدّيًا كبيرًا في الإجابة.

أحبها بشدة، ودومًا ما يضعنا الحب في مأزق، كنت أحدثها عن القدير وكيف أن له تقديرًا في أن يجمعنا معًا: أنت من مدينة بعيدة وأنا من مدينة أبعد، أنا من طرف الكرة الأرضية وأنت من الطرف الآخر، وقلوب البشر بين يدي الرحمن يقبلها كيفما شاء.

«الأقدار من صنع الإنسان، نحن من نصنع أقدارنا».

قالتها وهي تنظر في عيني مباشرة، ثم أضافت في دلال:

«الصدفة السعيدة هي التي جمعتنا معًا، أحببتك من أوّل لحظة نظرت فيها إلى عينيك، وقلبي ليس بين يدي أحد.. وإن كان، فإنه بين يديك أنت!»

ألجمتني مرّة أخرى، لم أعرف هل أفرح لاعترافها بحبها لي بتلك الكلمات الساحرة أم أحزن لأنها لا تفهمني؟! يورطنا القلب في أمور لا طاقة لنا بها، كنت قد حدثتها من قبل عن تجلي الله للجبل في قصة النبي موسى، وكيف أنه انهار وهوى متحوّلًا إلى صورته الأصليّة، أعجبتها القصة التي كانت تسمعها بفضول طفلة ولكنها لم تقتنع بمغزاها!

-«ربما أحببت فيك حماسك وقناعتك ولمعان عينيك وأنت تتحدث عن تلك الروحانيّات»!

-وما الحب إلا واحدًا من أهم «تلك الروحانيّات» التي أتحدث عنها، أحبّ موسى ربه فأطاعه، وأحب عيسى مولاه فسار عكس الجموع، وأحب إبراهيم نور خالقه

فألقي بنفسه في النار ذاتها، ورأى محمد البرهان يقيناً فصدق وصدق...

-«أستطيع أن أشعر بك ولكني لا أفهمك»!!

-«تشعرين لأنك تحبين»

نَظَرْتُ هي إلى القمر تلك المرة، شَرَدْتُ للحظات، أراه منعكساً في عينها فزادها بريقاً وزادني لوعة، أرى الله يتجلى في صُنْعِهِ لِعَيْنَيْهَا، زرقاء تنسجم مع الكون من حولنا، بها هدوء وصمت يجعلني أذوب، أصل إلى قلبها من هنا: من العَيْنَيْنِ، وأرى فيه خيراً وحُبّاً كثيراً للعالم.

قاطعتني: «يبدو القمر أقلّ جمالاً إذا نظرت له من خلال التلسكوب، هل جربت؟»
رددت بالنفي.

قالت دون أن تبعد عينيها عن السماء:

«قطعة الزجاج تلك تصنع دوماً حائلاً بيني وبينه، نظرت إليه كثيراً: مئات، بل آلاف المرات، بدافع الفضول والاستكشاف، هل تعلم أنها ربما تكون المرة الوحيدة التي أنظر إليه بالعين المجردة؟ أنظر إليه وأطيل النظر؟!»

- «رأيتُ ذلك.. ربما هو أيضاً يشعر بك، ربما هي المرة الوحيدة التي يراك فيها تنظرين إليه نظرة المُحِبِّ وليس نظرة المُدَقِّق!»

نَظَرْتُ إلى القمر، تبسم لي، تجلّى الله مرة أخرى في ابتسامته، قلت بعفوية: «الله».

خفضتُ رأسها في هذه اللحظة، ونظرتُ ناحيتي، وقالت: «جميل».. ثم رفعت رأسها ناحية القمر مرة أخرى: «كم هو جميل!».

اقترب الفجر، وكنا قد خرجنا من البحيرة، وجلسنا في مكان قريب نرى منه الجبال على مسافة بعيدة، تكاد تلامس السحب، تريد أن توقفها.. هل تغار الجبال من السحب لأنها حرة؟ ولكن السُّحْبُ أيضاً ليست حرة تماماً؛ الرياح تحرك السحب، وتتحكم في اتجاهها وسرعتها بل وشكلها، ويبدو المشهد كُلُّهُ أمامي الآن كمطاردة بين الثابت الذي لا يملك حركته، وبين المتحرك الذي لا يملك حركته أيضاً، حتى الرياح، الرياح نفسها يُحَرِّكُهَا مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بها، هي أيضاً ليست حرة تماماً، منظر

مبهر، انقطعت أفكارى الجارية مع السحاب، بدفء سرى في جسدى، فقد أَلَقْتُ برأسها على كتفى وأشارت إلى النجوم في السماء، وظلت تحكي في شغف عن نظرية نشأة الكون والانفجار العظيم، ذلك الرَّحْم الذي خرج منه العالم بأكمله، هل قَرَأْتُ أفكارى كي تناقضها؟

لماذا يكون لديها دومًا الجرأة لتجاهر بأفكارها بهذه الطريقة المباغثة، بينما لا أفعل أنا؟!!

كان القمرُ قد دَبُلَ، وغلبها النعاس، تَرَكْتُ رأسها لكتفى، وبدأت خيوط الإشراق تسبح في السماء لكي تعلن بداية يوم جديد من أيام الله.

أَغْلَقْتُ عينيها واستسلمت للنوم حتى تراخت أعصاب الجسد وانتظم النبض وسكنت الجفون، نظرت إلى السماء ورأيت اللون الأصفر يصبغ اللون الأزرق تدريجيًّا فارصًا سطوته على السماء والأرض، هدأت الجبال واستسلمت لقَدَرِها، وتركت السحب نفسها للرياح تأخذها أينما يشاء المَلَك، تراءت لي اللوحة كاملة الإبداع، وتجلى الله لي مرةً أخرى.

«قلت لك إن ما أعجبني فيك هو يقينك بتلك الروحانيات»

سمعتها تقول.